تمهيـــــــــد

obeikandl.com

شـــاع في أوساط العامة ؛ بل ربما في أوساط بعض المتخصصين ـــ أيضـــا ـــ النفورُ من فكرة وجود المبالغة في القرآن الكريم ؛ بل التحفظ من وجودها في اللـــُغة ذاتها ... ذلك لأنها ارتبطت في أذهان الكثيرين ـــ قديمًا وحديـــثـــًا ـــ بـــالكذب ! ممـــا حدا بهم إلى نفي المبالغة قولاً واحدًا إيثارًا للصدق والاقتصاد في المعنى ظنـــًا منهم أنها ملفوفة بالكذب والاستحالة فهي فـــي نظـــرهم كمـــا قال العلوي (ت ٧٤٩هـــ) { غير معدودة من محاسن الـــكلام ، ولا من جملة فضائله ، وحجتهم على هذا هو أن خير الكلام ما خـــرج مخـــرج الحق وجاء على منهاج الصدق من غير إفراط ولا تفريط ، والمـــبالغة لا تخلـــو عن ذلك كما جاء في أشعار المتأخرين من الإغـــراق والغلـــو ، وجـــه آخـــر وهو أن المبالغة لا يكاد يستعملها إلا من عجز عن استعمال المألوف والاختراع الجاري على الأساليب المعهودة ، فلا جرم عمد إلى المبالغة لسد خلل بلادته بما يُظهر فيه من التهويل ولهذا تراها مُخرجةً للكلام إلى حَـــدِّ الاستحالة } (١).

وعلى النقيض من هذا ذهب فريق إلى { أن المبالغة من أجلِّ المقاصد في الفصاحة ، وأعظمها في البراعة ، ومن أجلها نشأت المحاسن في المعاني الشـــعرية ، وحجتهم على هذا أن خير الشعر أكذبه وأفضل الكلام ما بولـــغ فـــيه ، ولهـــذا فإنك ترى الكلام إذا خلا عنها وبَعُد عن استعمالها كان ركيكا نـــازلاً قدره ، ومتى خلط بها ظهرت فصاحته وراق رونقه ، وحَسُن بهاؤه وبريقه } (٢).

وتوسَّـــط آخرون فقالوا : { إن المبالغة فنٌّ من فنون الكلام ، ونوع'' مـــن محاسنه ، ولا شك أن للكلام بها فضل بهاء ، وجودة رونق وصفاءً لا يخفـــى علـــى من كان له أدنى ذوق ، ولكن ليس على جهة الإطلاق ؛ فإن الصدق فضله'' لا يُجحد ، وحسنه لا يُنكر فمهما كانت المبالغة جارية على جهة الاعتدال بالصدق فهي حسنة'' جميلة'' ، ومهمـــا كانت جـــارية

---

(١) الطـــراز ـــ يحيى بن حمزة العلوي ـــ تحقيق محمد عبد السلام شاهين ـــ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولـــى ١٩٩٥م / ٤٥٦ ، وانظر العمدة لابن رشيق طبعة محمد محي الدين عبد الحميد ٢ / ٥٣ .

(٢) الطراز / ٤٥٦

على جهة الغلو والإغراق فهي مذمومة } (١)

فاستوت بذلك مذاهب ثلاثة في قبول المبالغة ورفضها في تراثنا البلاغي ذكرها العلويُّ وغيره ، بيد أن الشائع اليوم بين الناس المذهب الأول القائل بالرفض ، للعلة نفسها أن المبالغة مقرونة بالكذب والغلو والإغراق أبدًا ولهذا فهي "معيبة" مذمومة .

ومن أجل هذا كان من الأمور الحتمية ، بل من أوجب أهداف هذا البحث إزالة هذا الوهم ، وكشف هذا الغموض الذي تلبَّس بالمبالغة ، وتجليتها فنًا بلاغيًا منوطًا بكل فروع البلاغة وألوانها ، فلا تخلو صورة بيانية منها ، ولا أسلوب أدبي رقراق إلا امتزجت بها ، ملفوفة في كل ذلك بثوب من جمال التخييل ، وبراعة التصوير ، وتناهي عمق البُعد النفسي والوجداني .

ولا ريب أن المبالغة ــ شأنها في ذلك شأن كثير من الفنون البلاغية ــ شاب مصطلحاتها غيرُ قليل من الاضطراب والتداخل ، فترادف بعضها ، وتضاد بعضها الآخر وكلما جاء متأخر" زاد مصطلحًا أو غيَّر من مفهوم مصطلح .

ومن ثمَّ كان حريًا بالبحث أن يوضح أولاً مفهوم هذا المصطلح " المبالغة " وتحريره وتنقيته ، ثم النظر ــ ثانيًا ــ في كم المصطلحات التي تفرَّعت منه والحكم في النهاية أيها يُعَدُّ من فنية المبالغة ، وأيُّها بعيد" عن هذه الفنية .

ثم أُعرِّجُ على القضية الأم التي عنى البحث بجلائها والتدليل عليها ألا وهي " المبالغة بين الصدق والكذب " ، إذ إن القول بأن المبالغة رديفة الكذب كاد أن يُفسد الذوق الأدبيَّ كلَّه ، ويحرمَ البلاغة من " البلاغة " إذ ما الذي يبقى من البلاغة إن رُفضت المبالغة في اللغة أو في القرآن الكريم ؟! فإنك إن رُمْت الحقيقة وجدت المبالغة ماثلةً أمامك في جميع الأعمال الفنية واللغوية : في الصيغة : " فعَّال ــ مِفعال ــ فُعول ..الخ وفي الصورة الفنية : في التشبيه والكناية والاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي وفي التراكيب الفنية في الاستفهام والأمر والنهي

(١) الطراز / ٤٥٦

والتمني ؛ بل في بعض الأساليب الخبرية أيضـًا ، وفي الإعجاز في أسماء الله تعـالى وفي حقيقة النفس والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، والإعجاز الفقهي .. الخ .

باختصـار شديد : المبالغة : هي روح البلاغة وجوهرها ، وبدونها تُصبح الـبلاغة جَسَدًا مَيْتـًا لاحِراك له ، بلا غرابةٍ أو طرافة أو ابتكار بعيدًا عن التصـور السَّامق ، والتـمرُّد الدلالي الـخلاق ، النَّائي عن المباشرة والإلف والاعتياد .

فمـا مـن شـك أن المبالغة ــ متى اتـَّشحت بالصدق الفني ــ أحدثت في الصـورة مزجـًا لازبـًا بين الخيال والوجدان ، وحركة متموِّجة حيَّة بين الواقع المحدود المرسوم وبين العالم الأكبر ، اللامحدود .. اللا متناهي .

وجملـة القول أريد أن أُعيد لمصطلح " **المبالغة** " معناه الفنيّ الفتيّ الذي تاه وسْـط معانـي التهويم والتهويل والتهوين ، وأقصر قَصْرًا على هذا ، مفتقدًا الدلالة الحيوية التي نبحث من خلالها عن جوهر وصول المعنى إلى أقصى غاياته السامقة الخلاَّقة ، حينئذٍ نرى الصورة لا تفارق الحـق المنشود.. نـرى الخيال لا يجافي الصدق الفني .. ساعتها ترى مشهدًا صادقـًا ارتبط فيه الواقع بالخيال ، والقلبُ بالعقل في نسيجٍ صحيحٍ مقبولٍ فنيـًا بعيدًا عن مناط الغلو ، ودائرة المغالاة .

ومن هنا يَجْمل بنا أن نتناول في هذا التمهيد النقاط الآتية :

(١) : مصطلح المبالغة .

(٢) : مفهوم المبالغة عند القدماء وما تعلَّق بها من مصطلحات

(٣) : المبالغة بين الصدق والكذب .

(٤) : المبالغة بين المستحيل والممتنع والممكن .

(٥) : تفرُّد مبالغات القرآن .

(١) مصطلح المبالغة

تـدور المـادة اللغويـة للمـبالغة حول بلـوغ المعنى القصدَ ، وزيادتَه ، وتكـثـيرَه ، وشـدتَه ، والوصـولَ به إلى أقصى غاية ممكنة قـال ابن منظور : { بالغ يبالغ مبالغة وبلاغـًا إذا اجتهد في الأمر ... وشيء بالغ أي جَـيِّد **وقـد بلغ في الجودة مبلـَغـًا ... والمبالـغة أن تبلغ في الأمر جُهدك** } (١) .

وفي القاموس المحيط : { و البـِلـَغِين في قول عائشة رضي الله عنها لعليّ رضـي الله تعالى عنه بلغت منا البـِلـَغِين ، ويضم أوله : الداهية ، أرادت بَلـَغْتَ منا كل مَبلـَغ .. وبلغ الفارس تبليغـًا مدَّ يدِه بعنان فرسه ليزيد في جَريْه وتبلـَّغ بكذا اكتفى به ... **وبالغ في أمري لم يُقصِّر** } (٢)

وتعنـي " المـبالغة " في الاصطلاح البلاغي { الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياتـه } قـال أبـو هلال العسكري (ت ٣٩٥)هـ : (" المبالغة " أن تبلغ أقصـى غاياتـه وأبعـد نهاياته ولا تقتصر في العبـارة عنه أو في منازله وأقرب مراتبه } (٣) .

وقـال السيوطي في الإتقان : { المبالغة : أن يذكر المتكلم وصفـًا فيزيد فيه حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده } (٤) .

ومـن هنا فإن حقيقة " المبالغة " قائمة على هاتين الدلالتين : الدلالة اللغوية وهي منوطة بالزيادة بما يكتنفها من الشدة والقوة والكثرة ، وهذا هو الغالب في فهم المبالغة عند القدماء ، ولذا أدرجوا تحتها صيغ المبالغة : (مِفعال ــ فعَّال ــ فعُول ....) وبعض الأدوات مثل كاد .... إلخ .

---

(١) لسـان العـرب مـادة ب ل غ وانظر تاج العروس للإمام اللغوي . السيد محمد مرتضى الزَّبيدي ، المجلد السادس ، الناشر دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي ، مادة (ب ل غ) .

(٢) القـاموس المحـيط لمجـد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي مادة (ب ل غ) .

(٣) الصـناعتين ، أبو هلال العسكري ــ تحقيق د . مفيد قميحة ــ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ــ ط الثانية ١٩٨٩م /٤٠٣ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطـي (ت ٩١١)هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة التراث ، القاهرة ٢٨٢/٣ .

والدلالـــة الفنـــية وهـــي قائمة على بلوغ المعنى أقصى غاية ممكنة ، بحيث لايكون بعد ذلك إلا الغلو المذموم ، والشطط الناتئ عن الصواب .

وهـــذا الشِّـــق الفنـــيّ هو ما أردت أن أتوسع فيه ، وأكشِّـف حوله البحث ، فأكشـــف عـــن دروبـــه ومراميه ، إذ هو ألحق بالفن ، وأدخـــــل في دائرة البلاغة .

بيد أنه ينبغي مراعاة أن الزيادة المقترنة بالمبالغة اللغوية مشروطة بأن تكون لصـــيقة بالموقف ، مراعيه لمقتضى الحال ، وهي بهذا المفهوم تندرج تحت مفهـــوم الـــبلاغة العام في أوجز صوره " مراعاة الكلام لمقتضى الحال مع فصـــاحته " فيـــندفع بهذا الظن أن هذه الزيادة يمكن الاستغناء عنها ؛ لأنها الـــزيادة بالنســـبة لمـــا هـــو دونها من طرائق التعبير بغير أسلوب المبالغة وطرائقها ، أما المبالغة الفنية فهي مشروطة بإقناع المتلقي وبلوغ الغاية في تصـــوير المشـــاعر والاحاسيس وانظر في ذلك ــ مثلاً ــ قول سُكَيْنة بنت الحسين : " ما لبست ابنتي الـــدُّرَّ إلا لتفضحه " (١) .

ستجد " المبالغة " قد انتقلت بك إلى أقصى ما تطلبه امرأة في وصف جمالها فمن المعروف أن المرأة تزدانُ بالـــدُّر ، واللؤلؤ ، فتزداد جمالاً وهذا معنى مألوف مشهور . فإن ارتقت درجة كانت غانية (٢) أي استغنت بجمالها عن الزينة ، فلم تعد بحاجة إليها .

فإن بَلـــغْتَ الغايةَ في وصف جمالها فلن تجد خيرًا مما قالته سُكَيْنة إذ يمثل الدُّر ــ الذي هو موطن الزينة ومحل التجمل ــ أمرًا رديئـــًا بل مفضوحـــًا ؛ لأن جمال ابنتها الصارخ بلغ من الحُسن مبلغه حتى طغى على جمال الدُّر نفسه فأضحى ممسوخًا مرذولاً وهذا يمثل أقصى غاية يمكن أن تصل إليها امـــرأة فـــي وصـــف جمالها وذلك هو الدور المنوط بالمبالغة الفنية المقبولة بحيـــث لا تعطي قدرًا لمستزيد بعد ذلك ، فلا يكون هناك بعد ذلك المعنى إلا الغلو الممجوج والمبالغة المرفوضة .

---

(١) الـــبديع فـــي نقد الشعر لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤) ــ تحقيق د . أحمد أحمد بدوي و د. حامد عبد المحيد ،مراجعة الأستاذ إبراهيم مصطفى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٠هـــ ــ ١٩٦٠م /١٠٦

(٢) قال ابن منظور : { الغانية : التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحـــلى } مادة (ع . ن . ١) .

أمـــا المـــبالغة القرآنية فحدِّث ولا حرج إذ بلغت كلها حَدَّ الكمال ، وانظر ـــ مـــثلاً ـــ إلـــى قـــوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرهم يَوْمَ الآزفةِ إذ القلوبُ لدى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ (١) .

فقـــد صـــعدت القلـــوب من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر وذلك لرهـــبة يوم القيامة لاسيما للظالمين (٢) ففاق تعبير القرآن كل تصوُّر لإبراز معانـــي الخـــوف والفزع ، فالقلب لم يرتجف أو يضطرب بل قد انخلع من مكانه ووصل إلى الحناجر ، وهذا التعبير القرآني بهذه القوة أوقف المفسرين لتبيـــُّن المراد ، هل هذا حقيقة أم مجاز ؟! ويبقى السياق في إعجازه يحمل كلتا الدلالتين ، وهما على وجهٍ سواء يُنبئان عن رونق القرآن وبلوغه منتهى الجمال وغاية التصوير .

---

(١) غافر /١٨ وهذا الموضع قريب من موضع آية الأحزاب " وبلغت القلوب الحناجر " /١٠

(٢) انظـــر كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ـــ دار الكتاب العربي بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـــ ـــ ١٩٨٣م ٤ / ٤ .

obeikandl.com

(٢) مفهوم المبالغة عند القدماء وما تعلّق بها من مصطلحات

تناول البلاغيون " المبالغة " تحت اسم " الإفراط في الصفة " كما عند ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) ، وتردد من قبل عند ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ)، وثعلب (ت ٢٩١ هـ)، وهو يعني عندهم : البلوغ إلى أقصى غاية ، أو الغرابة والخروج عن المألوف .

فلما جاء قدامة (ت ٣٣٧ هـ) كان أول من أطلق هذا المصطلح " المبالغة " واستقر العلماء من بعده على هذه التسمية ، وهي تعني عنده : { أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعرٍ لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد له } [١] .

وهو يجعلها في مرتبة أقل من الغلو الذي يُبنى على الإفراط الشديد لكنه ـ على أية حال ـ يضعهما في دائرة واحدة من القبول والاستحسان .

وجاء البلاغيون من بعده وفرّعوا منها : التبليغ والإغراق والإيغال .. إلخ ولعل من أبرز الذين جاءوا من بعده ويمكن الوقوف عندهم :

أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤هـ) ، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) ، والشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) ، وابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) ، وابن سنان (ت ٤٦٦هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، ومحمد بن علي الجرجاني (ت ٧٢٩هـ) ، والعلوي (ت ٧٤٩هـ) .

١- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ) .

تعني المبالغة عنده { الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة } [٢] والتغيير عن أصل اللغة للإبانة إما أن يكون عن طريق الصيغة الصرفية مثل فعّال ـ مِفعَال ـ فَعُول ..إلخ وإما أن يكون عبر الصياغة وله عدة طرق :

---

(١) نقد الشعر ـ لأبي الفرج قدامة بن جعفر ـ تحقيق كمال مصطفى ـ الناشر : مكتبة الخانجي ط الثالثة ١٩٧٩م / ١٤١

(٢) النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل) ـ تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام ـ دار المعارف بمصر ـ ط الثانية ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م / ١٠٤ .

(١) أن توضع الصيغة العامة موضع الخاصة ، كقوله تعالى : ﴿ خَالق كُلِّ شيء ﴾ [١] .

(٢) إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ وَجاءَ رَبُّك والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [٢] فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئًا له على المبالغة في الكلام .

(٣) إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة نحو قوله تعالى : ﴿ وَلا يَدْخُلون الجَنَّة حتى يلجَ الجملُ في سَمِّ الخِياطِ ﴾ [٣] .

(٤) إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل ، والمظاهرة في الحجاج فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإنَّا أوْ إيَّاكم لعلى هُدَى أو في ضَلالٍ مُبين ﴾ [٤] ومنه قوله تعالى : ﴿ قُل إن كان للرحمنِ ولد فأنا أول العَابِدين ﴾ [٥] .

(٥) حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ ص~ والقرآنِ ذي الذكر ﴾ [٦] كأنه قيل : لجاء الحق ، أو لعظم الأمر ، أو لجاء بالصدق . كلّ ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم ، والحذف أبلغ من الذكر ؛ لأن الذكر يقتصر على وجه ، والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما تضمنه من التفخيم [٧] .

---

(١) الأنعام/ ١٠٢
(٢) الفجر/ ٢٢
(٣) الأعراف/ ٤٠
(٤) سبا / ٢٤
(٥) الزخرف /٨١
(٦) ص~ / ١
(٧) انظر النكت / ١٠٤ – ١٠٦

٢- القاضي علي بن عبد العزيز الجُرجاني (ت ٣٩٢هـ) .

يُحكّم القاضي الجُرجاني ذوق المتلقي ودربته في قضية المبالغة والحكم على سلامتها وقبولها إذ يقول : { فأما الإفراط فمذهب'' عام في المُحدثين ، وموجود'' كثير'' في الأوائل ، والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصْد ، والاستيفاء ، وسلم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشُعبة من الإغراق والباب واحد'' ، **ولكن له دَرَج'' ومراتب** } (١) .

ولعلنا نلحظ من النص تقارب المبالغة والغلو والإفراط والإغراق ، وكأنه يشير إلى أنه ليس مهمًا التفريق بين هذه المصطلحات وإنما المهم المضمون وانسجام المتلقي واقتناعه بالعمل الأدبي ذاته .

كذلك يشير إلى نقطة غاية في الأهمية وهي منوطة بالكلام السابق ألا وهي: اختلاف المصطلحات نتج عن اختلاف درجة المبالغة .

٣- الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) .

تعني " المبالغة " عنده الكثرة والشدة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسانُ من عَجَل سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ (٢) أن يكون معنى القول : المبالغة في وصف الإنسان بكثرة العَجَلة ، وأنه شديد الاستعجال لما يؤثره من الأمور ، لهج'' باستدناء ما يجلب إليه نفعًا ، أو يدفع عنه ضررًا ، ولهم عادة في استعمال مثل هذه اللفظة عند المبالغة ، كقولهم لمن يصفونه بكثرة النوم : ما خُلقت إلا من نوم ، وما خُلق فلان إلا من شرٍ ، إذا أرادوا كثرة وقوع الشر منه ، وربما قالوا : ما أنت إلا أكِل'' وشَرِب'' ، وما أشبه ذلك } (٣) .

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجُرجاني ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ بلا تاريخ / ٤٢٠

(٢) الأنبياء /٣٧

(٣) أمالي المرتضى ــ للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار إحياء الكتب العربية : عيسى البابي الحلبي وشركاه ط الأولى ١٣٧٣هـ ــ ١٩٥٤م ٤٦٥/١

كما تعني المبالغة عنده عظم الأمر [١] والشدة [٢].

٤- ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) .

أما " ابن رشيق " فإنه ينظر إلى " المبالغة " نظرة فيها شمول ، إذ يعرض ضروب الناس المختلفة حول " المبالغة " قبولاً ورفضًا فيقول : { هي ضروب'' كثيرة ، والناس فيها مختلفون : منهم من يؤثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القصوى في الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان وهو القائل : أشعر الناس من استجيد كذبه وضحك من رديئه } [٣] وهذا القسم الأول ، وثمَّ صنف آخر : من ينكرها ويعيبها ، ويراها هُجْنةً في الكلام لأنها { ربما أحالت المعنى ، ولبَّسته على السامع ، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره ، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ، لأنه ينبغي أن يكون من أهم أغراض الشعر والمتكلم أيضًا الإبانة والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ؛ فإن العرب إنما فُضِّلت بالبيان والفصاحة ، وحلا منطقها في الصدور ، وقبلته النفوس لأساليب حسنة وإشارات لطيفة ، تكسبه بيانًا وتصوره في القلوب تصويرًا ، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء ، وقد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قرَّبوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها } [٤].

وهو يرى أن الذين أنكروها إنما فعلوا ذلك لإدخالهم الغلو فيها ، بينما " المبالغة " عنده ليست هي " الغلو " وإنما الغلو درجة من درجاتها وقد اقترن عنده " بالإفراط " و " الإغراق " [٥] يقولُ : { فأمَّا الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيب الاستعارة ، إلى كثيرٍ من محاسن الكلام } [٦].

---

(١) انظر الأمالي ١ / ٥٠-٥١

(٢) انظر الأمالي ١ / ٣٢٩

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ــ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ــ ط الخامسة ١٩٨١م ٢ / ٥٣

(٤) العمدة ٢ / ٥٣

(٥) انظر العمدة ٢ / ٦٠

(٦) نفسه ٢/٥٥

ومن هنا فالغلوُّ عنده قسمان : الأول ممدوح وهو من أحسن المبالغة وأغربها عـند الحـذاق حيث يبلغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء والآخر مذمـوم ساعة أن يحيد الشاعر عن الإصابة ويوغل في الإحالة الفجَّة كقول أبي نواس :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إنَّه لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتي لم تُخـلَقِ (١).

٥- ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) .

إذا كنا قد رأينا " ابن رشيق " يفرق بين " المبالغة " و " الغلو " في أنه يجعل " الغلـو " درجـةً من درجات المبالغة ، فإننا هنا نجد " ابن سنان " يُسوِّي بيـنهما ، ويسـتخدم المبالغة بمعنى الغلو ، فهما مترادفان ، وفيهما الممدوح والمذموم { أما المبالغة في المعنى والغلو : فإن الناس مختلفون في حمد الغلو و ذمه ، فمنهم من يختاره ويقول أحسن الشعر أكذبه ... وأما استعمال الغلو الخـارج إلـى الإحالة في النثر قليل ، وأكثر ما يستعملُ فيه المبالغة التي تقارب الحقيقة ، كقول بعضهم : لهم جود كرام اتسعت أحوالها ، وبأس ليوث تتـبعها أشبالها ، وهمم ملوك انفسحت آمالها ، وفخر ضميمٍ شَرُفَتْ أعمامها وأخوالها . فبالغ لما جعل لهم جود الكرام مع اتساع الحال ، وبأس اللـيُوث مـع اتـباع الأشبال ، وكذلك ما بعده من الكلام ، ومن المبالغة قول النابغة الذبياني :

وَلا عَيْبَ فيهم غَيْر أَن سُيوفَهم بِهِنَّ فلول'' من قِراع الكتائبِ

وإنمـا كان هذا الاستثناء من المبالغة في المدح ؛ لأنه قد دلَّ به على أنه لو كـان فـيهم عيب'' غيره لذكره ، وأنه لم يقصد إلا وصفهم بما فيهم على الحقيقة } (٢) .

---

(١) نفسه ٢ / ٦٢

(٢) سـر الفصـاحة ـ ابـن سـنان الخفاجي ـ تحقيق على فوده ـ مكتبة الخانجي ، القاهرة ط الثالثة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م / ٢٥٦ ، ٢٥٧

obeikandl.com

٦- عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) .

يُعَـــدُّ " عبد القاهر " أكثر البلاغيين الذين مزجوا البلاغة بكل فنون البـيان ، وعـدَّ جمال الصورة مرهونـًا ببلوغ المنتهى فيها ، نجد ذلك في التشـبيه والاستعارة والكناية ، فهو يتكلم عن التشبيه بقوله : { وحكم هذا في أن الفـرع لا يخرج عن كونه فرعًا على الحقيقة حكم ما طريق التشبيه فيه **المـبالغة** مـن المشـاهدات والمحسوسات كقولك " هو كحنك الغـراب في السواد . لما هو دونه فيه } (١) .

ثـم تراه يتحدث عن الاستعارة المفيدة في كونها قائمة على الادِّعاء ، مُفادهـا المبالغة في الوصف : { ومثاله قولنا : " رأيت أسدًا " ، وأنت تعني رجلاً شجاعًا ، و " بحرًا " تريد رجلاً جوادًا = و" بدرًا " و " شمسًا " تريد إنسانًا مضيء الوجه متهلـلاً = و " سللت سيفـًا على العدو " تريد رجلاً ماضيًا في نصرتك ، أو رأيـًا نافذاً وما شاكل ذلك ، فقد استعرت اسم الأسد للرجل ، ومعلوم'' أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك ، وهو **المبالغة** في وصف المقصود بالشجاعة } (٢) .

ثم يزيد هذا المعنى بقوله : { فقولك رأيت أسدًا تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على **المبالغة** ، أمر يستوي العربي والعجمي ، ونجده في كل جيل ، وتسمعه من كل قبيل (٣) .

وفـي حديـثه عن إسقاط ذكر المشبه في الاستعارة يقول : { كما مضى من قولك : " رأيت اسدًا " تريد رجلاً شجاعًا = و " وردتُ بحرًا زاخرًا " تريد رجـلاً كثير الجود فائض الكف = و " أبديت نورًا " تريد علمًا وما شـاكل ذلك . فاسم الذي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به ، لقصدك **أن تبالغ** ، فتضع اللفظ بحيث يُخيَّلُ أن معك نفس الأسد والبحر والنور ، كي تُقوِّي أمر المشابهة وتُشدِّده } (٤) .

---

(١) أسرار البلاغة ــ تحقيق محمود محمد شاكر ــ دار المدني بجدة ــ ط الأولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١ م /٢٣٥ .

(٢) نفسه /٣٣ .

(٣) نفسه /٣٤ .

(٤) نفسه /٢٤٢.

وفي إطار الحديث عن مزية الكناية وترجيحها على الحقيقة يقول : { اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدَّعي لها = في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها . تفسير هذا : أن ليس المعنى إذا قلنا : " إن الكنايةَ أبلغ من التصريح " أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلغ وآكد وأشد ، فليست المزية في قولهم : " جمُّ الرماد " ، أنه دلَّ على قِرى أكثر ، **بل أنَّك أثبت له القِرى الكثير من وجهٍ هو أبلغ** ، وأوجبته إيجابًا هو أشدَّ ، وادَّعيته دَعْوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق } (١) .

ثم تراه يمزج ــ أيضًا ــ المبالغة بالأساليب ، كما فعل في التعليل والحذف والتخصيص والقصر بتعريف الخبر والتقديم والطباق ... إلخ ، والمبالغة ــ عنده ــ قائمة على التجوز وبلوغ الغاية وحد الكمال ، هذا هو مضمون استخدامه للفظ المبالغة ، وإن لم يضع لها تعريفًا اصطلاحيًا محددًا ، فهو يقول بصدد الحديث عن الخبر المعرفة : { أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك **المبالغة** ، وذلك قولك : " زيد " هو الجواد " و " عمرو هو الشجاع " تريد أنه الكامل إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه ، وذلك لأنك لم تعتدَّ بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال } (٢) .

ومن هنا فإن " عبد القاهر " عدَّ براعة الصورة ، وجمال الأسلوب منوطًا بالمبالغة بالخروج عن الحقيقة ، حيث الاعتياد والإلف إلى رحابة التصوير والتخييل ، ويستنبط من هذا المضمون أن الرامي إلى تهوين المبالغة ، والسعي إلى حذفها والاستغناء عنها ، إنما يرمي إلى سلب البلاغة نضارتها وحيويتها ، وحرمان الأسلوب القرآني من أداة بلاغية مِطواعة لتفسير كتاب الله وتوضيح معانيه وكشف مراميه .

---

(١) دلائل الإعجاز ــ تحقيق محمود محمد شاكر ــ مطبعة المدني ، دار المدني بجدة ــ مكتبة الخانجي ط الثالثة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م /٧١ .

(٢) نفسه /١٧٩ .

٧- محمد بن علي الجُرجاني (ت ٧٢٩هـ) :

لـم يُعـرِّف " المبالغة " لكنه شرع في تفريع المصطلحات منها ، فتكلم عن التبليـغ والإغراق والغلو ، وهو متأثر في هذا ببدر الـدين بن مـالك (ت ٦٨٦هـ) في كتابه " المصباح " (١) بَيْدَ أنه زاد عليه بضرب الأمثلة لكل نوع بشيء من التفصيل ، فهو يقـول تحت عنـوان : إشـارة إلى المبالغة { الوصف البالغ فيه : إما أن يكون ممكنـًا أو لا .

والأول إن كان ممكنـًا في العادة ،سُمِّي : التبليغ ، كقول امريء القيس :

فَعَادى عدَاءً بين ثَوْرٍ وَنَعْجةٍ دِراكـًا ولم ينضحْ بماءٍ فَيُغسل

وصـف فرسـه بأنه أدرك ثورًا ونعجة وحشيين في مضمارٍ واحدٍ ، ولم يَعْرق وهذا ممكن عادةً وعقلاً .

وإن لم يمكن في العادة وأمكن في العقل ، سُمي بالإغراق ، كقوله :

وُنكرِمُ جَارَنا مادام فِينا وَنُتْبِعُه الكَرامةَ حَيْثُ مَالَا

والثاني : يسمى بالغلو ، كقول أبي الطيب :

عَقَـدَتْ سنابُكها عِثْـيَرا لو تَبْتِغي عَـنَقـًا عليه لأَمْكَنا

وقول أبي نواس :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّركِ حَتَّى إنه لَتَخَافُـك النطفُ التي لم تُخـلَقِ

وقول آخر :

أَسْكر بالأمسِ إن عزمتُ على الشـ ربِ غدًا ، وإنَّ ذا من العجبِ

بالغ الأول في شدة الغُبار ، وبالغ الثاني في شدة الإخافة ، وبالغ الثالث في

---

(١) انظـر : المصباح في المعاني والبيان والبديع ــ لبدر الدين بن مالك ــ تحقيق د . حسنى عبد الجليل يوسف ــ مكتبة الآداب ١٩٨٩م / ٢٢٠ ــ ٢٣٠

شــدة الإسكار ، بأوصاف ممتنعة عادة وعقلاً . وقد يخرج عن حدِّ الغلو : إمــا بلفظة "كاد " ، كقوله تعــالى : ﴿ يَكَــادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَــمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (١) وقول الشاعر في وصف فرسه :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَن ظِلِّـه لَوْ كانَ يَرْغبُ في فِراقِ رَفيقِ

أو بنوعٍ من التخييل ، كقول القاضي الأرجاني يصف طول ليلته :

يُخيلُ لي أن سُمرَ الشهب في الدُّجَى وُشُدت بأهدابي إليهن أجْفاني} (٢) .

ويمكن توضيح هذا التقسيم بالرسم التوضيحي الآتي في الصفحة التالية :

---

(١) النور/ ٣٥

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ــ لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني ت ٧٢٩هــ تحقــيق د . عبد القادر حسين ــ مكتبة الآداب ــ ١٩٩٧م / ٢٥٣ ، ٢٥٤

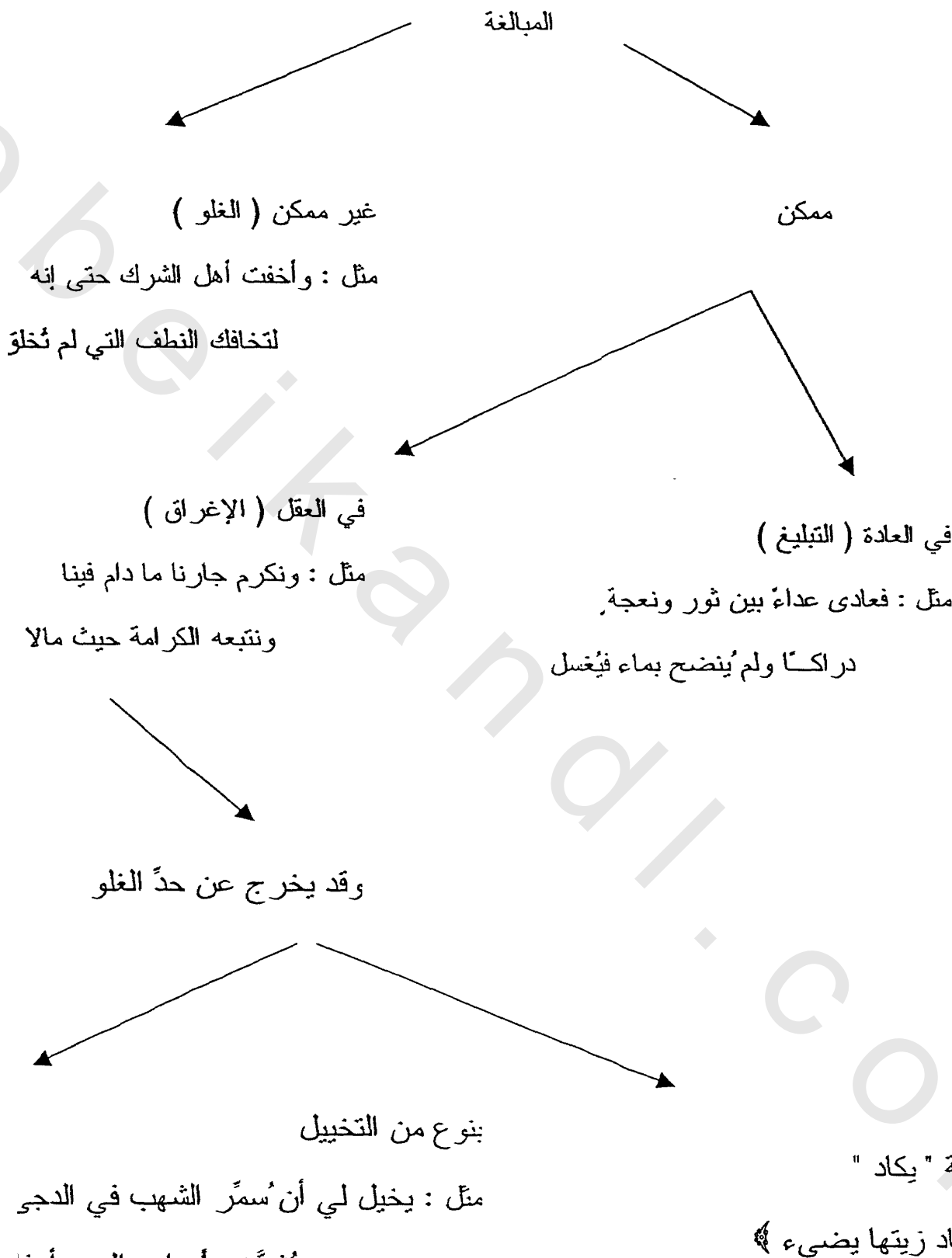

المبالغة

ممكن

في العادة (التبليغ)

مثل : فعادى عداءً بين ثور ونعجةٍ

دراكــًا ولم يُنضح بماء فيُغسل

في العقل (الإغراق)

مثل : ونكرم جارنا ما دام فينا

ونتبعه الكرامة حيث مالا

وقد يخرج عن حدِّ الغلو

بلفظة " يكاد "

﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾

بنوع من التخييل

مثل : يخيل لي أن سُمرَ الشهب في الدجى

وُشدَّت بأهدابي إليهن أجفا

غير ممكن (الغلو)

مثل : وأخفت أهل الشرك حتى إنه

لتخافك النطف التي لم تُخلقَ

obeikandi.com

وبيَّــن" أنه يجعل التقسيمات جميعها منبثقة من المبالغة ، والغلو عنده ليس مذمومـــًا ، بل يُمثــّلُ درجةً من الدرجات وهكذا سائر المصطلحات إنما تتباين في الدرجة ، لا في قبولها أو رفضها .. تتباين في إمكانها في العادة أو في العقل أو في عدم إمكانها قطعيــًا ، وسار على دربه من بعده الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) في " الإيضاح " [١] .

٨- يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ)

قــدَّم " العلوي " في " الطّراز " صورةً شاملةً عن المبالغة مع تحليلٍ دقيقٍ لــبعض الــنماذج التي ساقها أمثلة لتقسيماته ، مع زيادة بعض المصطلحات كالإيغـــال و " التوجـــيه " . فهو يعرف المبالغة بقوله {هي مصدر من قولك بالغت في الشيء مبالغة إذا بلغت أقصى الغرض منه ، وفي مصطلح علماء البـــيان هـــي أن تثبت للشيء وصفـــًا من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غـــيره ، إما على جهة الإمكان أو التعذر ، أو الاستحالة } [٢] فهـــي ــ في نظره ــ تعتمد الزيادة أبدًا ، سواء أكانت على جهة الإمكان ، أي على جهة صـــحة الوقـــوع ، أم على جهة التعذر ، أي تعذر حدوث الصفة مع إمكان وقوعهـــا ، أم على جهة الاستحالة أي على جهة ما لا يمكن وقوعه ، كل ذ لك معدود في " المبالغة " عنده [٣] .

وسبق أن عرضت له في أول التمهيد ذكره لمذاهب الناس حيال المبالغة على ثلاثة مذاهب [٤] .

---

(١) انظــر الإيضـــاح ــ الخطيب القزويني ــ تحقيق د . عبد القادر حسين ــ مكتبة الآداب ــ ط الأولى ١٤١٦هــ ــ ١٩٩٦م / ٤١٢-٤١٧

(٢) الطــراز ــ ليحــيى بن حمزة العلوي ت ٧٤٩هــ ــ تحقيق محمد عبد السلام شاهين ــ دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ــ ط الأولى ١٤١٥هــ ــ ١٩٩٥م / ٤٥٥ .

(٣) انظر الطراز / ٤٥٥

(٤) انظر ص ٢٤ .

obeikandi.com

طرق المبالغة عنده :

خلاصة ما يذكر من ذلك طرق ثلاث :

الطريقة الأولى

أن يستعمل اللفظ في غير ما وضع له في الأصل إما على جهة الاستعارة ، أو الكناية أو التمثيل ، على ماسبق تقريره في الأنواع المجازية ، فإنه إنما استُعمل فيها على تلك الأوجه من أجل المبالغة في معناها ، فإن قولنا مررت بالرجل الأسد يخالف قولنا مررت بالرجل الشجاع البالغ في الشجاعة كل مبلغ ، وما ذاك إلا لما فيه من المبالغة بكونه مجازًا ، وكما قال بعض الشعراء في وصف القرطاس :

وَيَرَى الصَّحيفةَ جَلْبَةً وجِيَادها أقْلامه وَصَريرهُنَّ صَهِيلاً

وكقول المتنبي :

بَدَتْ قَمرًا وَمالتْ خَوْط بانٍ وَفَاحَتْ عَنْبرًا وَرَنَتْ غزالاً

إلى غير ذلك من رقيق الاستعارة وبديعها .

الطريقة الثانية

أن تُترادف الصفاتُ وتكون متكررة لإعظام حال الموصوف وَرفْع شأنه ، ومن أجل قصد التهويل في المعنى المقصود وإشادة أمره من مدحٍ أو ذمٍّ كقوله تعالى : ﴿ الله نورُ السَّمواتِ والأرضِ مَثَلُ نُوره كَمِشْكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ في زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّيٌ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْه نارٌ نورٌ على نور ﴾ (١) .

فانظر إلى تعديد هذه الجمل ومجيئها من غير حرف عطف ، كيف أفادت المبالغة في حال الموصوف ، وأشادت من قدره ، ورفعت من حاله ، وأبانت المقصود على أحسن هيئة ، وكقوله تعالى :

---

(١) النور ٣٥

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لجي يغشاه موج'' من فوقه موج'' من فوقه سحاب ظلمات'' بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ (١) .

فتأمل هذه الأوصاف في نعت النور والظلمة ، كيف أصابت المحزّ ، وطبّقت المِفصل في تحصيل المقصود ، وإظهار المبالغة فيه كما ترى .

الطريقة الثالثة

إتمام الكلام بما يوجب حصول المبالغة فيه ، وإكماله به ، وهذا كقول من قال يمدح نفسه وقومه :

وَنُكْرِمُ جَارَنا مَادام فينا ... وَنُتْبِعُه الكَرامة حَيْثُ كانا

فإنه لم يكتف بما صدره في أول البيت من مقدار ما هو عليه وقومه من الإحسان إلى الجار والقيام بحقه وبذل الجهد في المعروف إليه ، حتى شفعه بقوله : " ونتبعه الكرامة حيث كانا " مشتملاً على زيادتين ، الزيادة الأولى لحوق الكرامة له من الإتحاف والإلطاف وكثرة الإحسان والتبجيل والتعظيم ، والزيادة الثانية قوله: " حيث كانا " وأراد به حيث يسير من سائر الجهات من بر أو بحر أو سهل أو جبلٍ ، فحصول هاتين الزيادتين قد اشتمل على المبالغة فيما ذكرناه ، وكقول أبي تمام في صفة الفرس ومدحه بصبره وتجلُّده على الجري :

وَأَصْرَعَ أيَّ الوحش قفيّته به ... وَأُنْزِل عنه مِثْلِهِ حِينَ أَرْكَبُ

فلمًا مدحه بأنه يلحق كل وحش عليه ولم يستثن شيئًا من ذلك عقبه بأعظم منه مدحًا وأكثر مبالغة بقوله : " وأنزل عنه مثله حين أركب " في جُمومُ جَرْيه وكثرة نشاطه ، أو أنه لا يعرق مع كثرة جريه لمزيد القوة وشدة صلابته } (٢) .

أضرب المبالغة

ترجع حقيقة المبالغة عند العلوي إلى دعوى المتكلم للوصف اشتدادًا فيما

(١) النور/ ٤٠

(٢) الطراز / ٤٥٨ ، ٤٥٩

سبق من أجله على مقدار ما يُسلمه العقل ويستقر به .

الضرب الأول { المبالغة }

ما يستبعد في العقل ؛ لكن وقوعه صحيح وهو **المبالغة** ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرَّحمةِ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَها اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ ﴾ (٢) .

الضرب الثاني { الإغراق }

ما كان ممكن الوقوع لكنه ممتنع وقوعه في العادة وهو **الإغراق** ، وهو على وجهين الأول منهما وهو أعجبهما وأدخلهما في العقول ، وهو كل ما يقترن به كاد ، ولو ، ولولا ، وحرف التشبيه وهو " كأن " فمتى اقترنت به أحد هذه الأمور ازداد حُسنُه ، وظهر إعجابه وهذا كقول امريء القيس :

من القاصراتِ الطَّرف لو دَبَّ مُحول من النملِ فَوْق الإتب منها لأثَّرا

والوجه الثاني أن يأتي مجرَّدًا عما ذكرناه ، وهذا يرد كثيرًا كقول ابن المعتز :

مَلِكٌ تراه إذا احتبى بنجاده غَمَرَ الجَماجِم والصُّفوفُ قيامُ

الضرب الثالث { الغلو }

ما كان ممتنعًا وقوعه وهو **الغلو** وهو على وجهين ، الوجه الأول أن يقترن به ما يقربه إلى الإمكان ، وهذا كقول من قال يصف فرسًا له بسرعة جريه

ويَكادُ يَخْرُج سُرْعةً من ظِلِّه لو كان يَرْغبُ في فِراق رَفيق

الوجه الثاني : ما لا يقترن به ما يُسوِّغ قبوله فيكون مردودًا وهذا كقول النمر بن تولب يصف سيفه :

---

(١) الإسراء / ٢٤

(٢) النحل / ١١٢

يكادُ تَحْفِرُ عَنْه إنْ ضربتَ به   بَعْدَ الذِّراعين والسَّاقين والهادي

ويذكر من مصطلحات المبالغة " **الإيغال** " (١) وهو { في أصل اللغة ... سرعة السير ، ويستعمل في المبالغة في الشيء ، يقال فلان يُوغِلُ في نظره وفي قراءته أي يبالغ فيهما وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن الإتيان في مقطع البيت وعجزه أو في الفقرة الواحدة بنعتٍ لما قبله مفيدٍ للتأكيد والزيادة فيه ومثاله قول الخنساء :

وإنَّ صَخْرًا لتأتمُّ الهُداة به   كأنَّه علمٌ في رأسِهِ نارُ

فقولها في رأسه نار ، من الإيغال الحسن لأنها لم تكتف بكونه جبلاً عاليًا مشهورًا ، بل زادت لكثرة إيغالها في مدحه وشهرته بقوله " في رأسه نار " لما فيه من زيادة الظهور والانكشاف ؛ لأن الجبل ظاهر فكيف به إذا كان في رأسه نار ، والنار ظاهرةٌ فكيف حالها إذا كانت في رأس جبل } (٢) .

ومن مصطلحاته أيضًا : " التوجيه " ويُعرِّفه بقوله : { هو تفعيلٌ من قولك وَجَّهتَ هذا البُرْد ، إذا جعلت له وجهًا يحسُن لأجله ويُرغب فيه هذا في اللغة ، وأما في مصطلح علماء البيان فهو أن يكون الكلام له وجهان ثم إنه يَردُ في البلاغة على استعمالين :

الأول : أن يؤكد المدح بما يكون مشبهًا للذم بأن تنفي عن الممدوح وصفًا معينًا ثم تعقبه بالاستثناء ، فتوهم أنك استثنيت ما يذم به فتأتي بما من شأنه أن يذم به وفيه " **المبالغة** " في مدح الممدوح ومثاله قول النابغة :

وَلا عَيْبَ فيهم غَيْر أن سُيُوفَهم   بِهِنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائبِ

الثاني : هو أن يُمدح شيء يقتضي المدح بشيء آخر كقول الشاعر :

هُو البدرُ إلا أنَّه البحرُ زاخرًا   خَلا أنَّه الضرغام لَكِنَّه الوبلُ

---

(١) ذكر الإيغال من قبل ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) في العمدة ٢ / ٥٧ ، وأسامة بن منقذ ت ٥٨٤هـ في " البديع في نقد الشعر " / ١٠٤ ، وبدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) في " المصباح " / ٢٣٠

(٢) الطراز / ٤٦٢ .

تعقيب :

بعد هذه الإطلالة والنظر في معالجة البلاغيين للمبالغة في التراث تتبدَّى بعض الملاحظات :

١- استقر مصطلح " المبالغة " بعد قدامة وهو يعني التجاوز والإفراط وبلوغ الغاية .

٢- تفرَّعت مصطلحات كثيرة عن المبالغة ، هي في كثير من وجوهها مرادفة لها وأحيانًا تكون على درجة من درجاتها كما قال القاضي الجرجاني : { وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشُعبة من الإغراق والباب واحد **ولكن له دَرَج'' ومراتب** } [١] مثل : التبليغ ، والإغراق ، والغلو ، والاقتصاد ، والإفراط ، والتفريط ، والإيغال ، والتوجيه ...الخ

لكن ربما يضع بعضهم وهم محقون " المبالغة المذمومة " تحت اسم " الغلو " [٢] كما فعل ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) [٣] .

وهذا الذي أراه حيث تندرج تحت المبالغة المقبولة كل تلك المصطلحات عدا الغلو الذي يعني المبالغة المذمومة [٤] .

---

(١) الوساطة / ٤٢٠

(٢) ربما لأن اللفظ في ذاته يحمل الذم قال ابن منظور : { غلا في الدين والأمر يغلو غُلُوًّا : جاوز حدَّه وفي التنزيل : " لا تغلوا في دينكم " .... وفي الحديث : إياكم والغُلُوَّ في الدين ، أي التشدد فيه ومجاوزة الحدِّ .. والغلو : الإعداء وغلا بالسهم يغلو غَلْوًا وُغلُوًّا ، وغالى به غِلاءً : رفع يده يريد به أقصى الغاية وهو من التجاوز } لسان العرب مادة (غ . ل . و) ٥ / ٣٢٩٠ ، ٣٢٩١ .

(٣) انظر تحرير التحبير ــ ابن أبي الإصبع المصري ــ تحقيق د . حفني محمد شرف القاهرة ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٥م /٣٢٣ .

(٤) وبيّن'' أن القدماء اختلفوا حيال مصطلح " الغلو " فمنهم من قبِله ، ومنهم من رفضه ، والبحث قائم على عدِّ الغلو تجاوزًا قبيحًا مردودًا .

بقي أن أشير إلى أن " المبالغة " إذا كانت هي الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياته ، واستقصائه كافة جوانبه ، في لفظ أو تركيب أو تصوير ، فإنه ليس هـو كل القضية ؛ فالذوق الفني له دوره ، لأن هذه الصورة ستقدَّم لقارئ له قِـيَمُه وأفكـاره وتقاليده وثقافاته ، فلا بد من وضع هذا في الحُسبان فكم من صورة جميلة مبالغ فيها إلى أقصى غاياتها ، صادقة في تعبيرها ، لكنها تهزُّ القارئ في مسلماته الثابتة ، أو في معتقداته الراسخة ... إلخ .

ومن ثمَّ يمكن القول : إذا كانت " المبالغة " نجاحًا في اختيار الإطار الذي يقـدم بـه الشاعر صورته في أقصى غاياتها ، بحيث يسهل التعاطف معها ومعه فيها ، وتصبح إضافةً لحياتنا الوجدانية والعقلية معـًا ، فـإن " الغلو " : فشـل'' في هذا الاختيار أو إخفاق في التصوير ، فينسبُ إلى الإسراف ، والمغـالاة ، والمـبالغة المذمومـة وينسب أيضًا إلى الإحالة السمجة ؛ لأن الشاعر تخطَّى أقصى الحدود الممكنة للمعنى ، بقصد الإغراب أو التشويق ، او لفت الانتباه ، بيد أنه أخفق في المحاولة ، فيصير الرداء فضفاضـًا على التجربة التي خاضها ، وتصير الصورةَ باهتة ، واللفظ باردًا (١) .

فمقـياس " المـبالغة " لـيس ذاتيـًا من قِبل الشاعر ، ولا انطباعيًا من قِبل المتلقـي ، ولكـنه درجـة من التجاذب والتعاطف والتلاقي بين المتلقـي والنص ، تجعل الصورة أكثر قبولاً وصدقـًا وإثارةً .

ومن هنا تأتي " نسبية الصورة " ؛ لأن المبالغة تعتمد أساسًا على تخطي الحد المـتعارف علـيه إلــى حدود أوسع وأرحب ، وتحتاج دائمـًا إلى التلاقي والتفاعل المثري بين المتلقي وفنية المبالغة ، ومن ثم ما يكون مبالغـة فـي

عصـرٍ من العصور ، قد لا يكون كذلك في عصرٍ آخر وما يكون مبالغة في بيئة قد لا يكون كذلك في آخرى فمثلاً قول الشاعر :

وَنُكرِمُ جَارَنا مَا دَامَ فينا   وَنتبِعُه الكرامةَ حيثُ مالا

---

(١) انظـر : الـبديع في شعر شوقي ــ د . منير سلطان ــ الناشر ، منشأة المعارف بالإسكندرية ــ ط الأولى ١٩٨٦م / ٢٢٢

مرصود'' في تراثنا من " المبالغة " لأن { كون جاره لا يميل إلى جهة إلا تبعته كرامته **مستحيل'' عادةً ممكن عقلاً** } (١) أما الآن فالبيت ليس من " المبالغة في شيء " ؛ لأنه بإمكان أي دولة أو جماعة أن تُولي عناية خاصة بشخصٍ ما في أي مكانٍ يحلُّ فيه عن طـــــريق : { القنصلية } أو { السـفارة } الـتابعة لها في جميع أقطار الأرض وأصبح هذا من المشهور الميسـور عادة وعقلاً ، لكنَّ هذا بدوره لا يَقـدح في كونها " مبالغة " في عصرها وبيئتها ، وستظلُّ هكذا أبدًا ، لأنها مرهونة بظرفها ، مقرونة بجوها التي قيلت فيه .

والخلاصـــة التي أرمي إليها ــ تجنبـًا لهذا التراكم الدَرَجي الكائن في تلك التفريعات والمترادفات لمصطلح " المبالغة " وفي الوقت ذاته حرصـًا على عدم إضاعة جهد المتلقي في إدراج المبالغة في إحدى فروعها وتقسيماتها ــ أنه ليس لدينا من مصطلحات سوى " المبالغة " و " الغلو "

فــالغلو : مــرحلة مــا بعد " بلوغ الغاية وأقصى النهاية " فما ثمَّ إلا الكذب والشطط الذي لا طائل تحته وقد يقترن بصدم ثوابت المتلقي ، فتعافه النفس وتمجه المشاعر مثل قول أبي نواس في مدح هارون الرشيد :

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

فهــو معيــب عند البلاغيين للخروج عن الحدِّ المسموح وإفراطه في الإحالة المــرذولة { حيــث صــيَّره تخافه النطف التي لم توجد ، ومعلوم أن خوف الــنطف محـــال ؛ لأن شرط الخوف عقلاً : الحياة ، فيستحيل الخوف من الموجود ، غلو مردود } (٢) .

---

(١) عـرس الأفــراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ــ ضمن شروح التلخيص ــ الجزء الرابع ــ دار البيان ودار الهادي ــ ط الرابعة ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م / ٣٦٠ ، ٣٦١

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ــ الجزء الرابع / ٣٦١

كذلك لافتقاده الصدق الفني وصدمه لمشاعر المتلقي (١) .

فليس بعد المبالغة الحسنة إلا الغلو الكاذب ، وليس وراء الصدق الفني إلا التكلف والسَّخف وليس ثمة قسمة'' أخرى :

فإما نجاح'' للصورة فهي " مبالغة مقبولة " . وإما إخفاق فيها فهي من " الغلو المردود " (٢) .

ومن نافلة القول أن ُأذكـِّر بأن جميع مبالغات القرآن من القسم الأول : المبالغات الحسنة المقبولة فقط أما القسم الثاني فمقصور'' على قول البشر ونتاج الناس .

٣- من اللافت أن عبد القاهر الجرجاني ــ من بين نقادنا ــ الذي فطن إلى الخيط الدقيق بين صور البلاغة وفنية المبالغة ــ كما بيَّنت من قبل ـ ولهذا لم يضع تعريفـًا للمبالغة ، لأنها تتساب في جميع فنون المبالغة إفرادًا وتركيبًا وتصويرًا ، وهذا الذي حدا ببعض البلاغيين المحدثين أن يجعل التشبيه والاستعارة والكناية والتقديم والتأخير ، والتتميم والإيغال بمثابة أوجه متعددة للمبالغة والغلو (٣) .

ولعله اتَّضح الآن ــ بما لا يدع مجالا ً لشاك ، أو إنكارًا لزاعم ــ أن القول بأن المبالغة كذب ــ وإفراط .. وأن الواجب الحذر منها والتقليل من شأنها ، ونزعها من البلاغة والقرآن ــ قول'' باطل وزعم فاسد ، ويقف من وراء هذا الزعم دعوى باطلة لإفساد الذوق الأدبي ، وهدم أسس البلاغة العربية والتنقيص من التراث العربي .

---

(١) لم أر أحدًا من القدماء أو المحدثين انتصر لهذا البيت المعيب فنيـًا إلا د . أحمد عبد السيد الصاوي حيث برَّر وجهة نظره بقوله : { إلا ان هذه " المبالغة " من وجهة نظري لها وجه من الصحة الطرافة ، وحسن التخييل ، ذلك أن مراد الشاعر : أن هذا الخوف قد انتشر وعم وشمل حتى أنه قد دب في النطف التي لم تخلق بعد ، فما بالك بمن هم أحياء على اختلاف ألوانهم وأنواعهم ومللهم ؟ إنه " الغلو " الذي يُعـَدُّ من قبيل " الممتنع " الذي يمكن حدوثه ، أو تصوره عقليـًا وليس من قبيل " المتناقض " الذي لم يحدث ، ولا يمكن تصور حدوثه } مفهوم المبالغة في الفكر النقدي والبلاغي ــ د . أحمد عبد السيد الصاوي ــ ١٩٩٠م / ٢٦٧ وفي رأيي أن عيب البيت ليس من جهة التخييل أو الامتناع أو الإحالة وإنما لفقده الصدق الفني وصدمه لمشاعر المتلقي مما جعله يفتقد التجاذب والتلاقي بينه وبين المتلقي وهذا ما اتفقت عليه كلمة العلماء قديمـًا وحديثـًا .

(٢) انظر : البديع في شعر شوقي ــ د. منير سلطان / ٢٢٢

(٣) انظر : مفهوم المبالغة في الفكر النقدي والبلاغي ــ د . أحمد عبد السيد الصاوي /٣٥٧

obeikandl.com

فالمبالغة هي العنصر الحيوي للبلاغة ، والجوهر النفيس لمعدنها ، ولولا المبالغة لاستحالت البلاغة شكلاً بلا مضمون ورسمًا بلا دلالة .

(٣) المبالغة بين الصدق والكذب

ليست قضية الصدق والكذب مقصورةً على المبالغة ، لكنها منوطة ـ أيضًا ـ بالبلاغة عامة ، فقولنا : زيد أسد ، ليس على الحقيقة ، ولا مقرونًا بالصدق الأخلاقي ؛ إذ ليس زيد'' أسدًا إلا على سبيل التشبيه والادِّعاء والتمثيل قصدًا للبيان والتوضيح . قل مثل هذا في " المبالغة " ففي قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ القلوبُ الحَنَاجِرَ ﴾ (١) قال من لم يستوعب المجاز ويُدرك كلام العرب : { **كيف تبلغُ القلوب الحلوق ، والقلب إن زال عن موضعه شيئًا ، مات صاحبه** } (٢) .

بينما قال أهل الفهم والعلم : { بلوغ القلوب الحناجر **مبالغة** في اضطرابها ، ووجيبها دون أن تنتقل من مقرها إلى الحنجرة ، وقيل : بحت القلوب من شدة الفزع ، فيتصل وجيبها بالحنجرة ، **فكأنها بلغتها** } (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ ﴾ (٤) على المعنى نفسه من " المبالغة " الدالة على استحالة دخول الكافرين الجنة ، فهم { لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدًا من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في بابٍ واسعٍ في ثقب الإبرة } (٥) .

---

(١) الأحزاب / ١٠

(٢) تأويل مُشْكِل القرآن ـ ابن قتيبة ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار التراث ، القاهرة ـ ط الثانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م / ٣١ .

(٣) تفسير البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسي ـ تحقيق د . عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض و د . زكريا عبد المجيد و د. أحمد الجولي ـ دار الكتب العلمية ، بيروت ط الأولى ١٩٩٣م ٧ / ٢١١

(٤) الأعراف /٤٠

(٥) الكشاف ـ الزمخشري ـ دار المعرفة ، بيروت ٢ / ٦٢

كذلك حديث النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن أبــي هــــــريرة : { لا يلـــج الـــنارَ رجـــل'' بكـى من خشية الله حتى يعــود اللبنُ في الضَّرع ... } (١) على المنوال نفسه من المبالغة ، فمُحال'' أن يعود اللبن فــي الضــرع مرة ثانية ، كذلك محـــال أن يدخل النار رجل'' بكى من خشية الله .

كذلـك ثمة أشعار بلغت الغاية في المعنى أدركت العرب مغزاها وإن قصر عن بعضهم جمالها وحسنها قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) : { كان بعض أهـل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ، وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار . وما أرى ذلك إلا جائزًا حسنـًا على ما بيَّنـاه من مذاهبهم كقول " النابغة " في وصف سيوف :

تقــدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نسجُهُ وتوقِدُ بالصَّفاح نارَ الحُباحبِ

ذكر أنها تقطع الدروع التي هذه حالها ، والفارسَ حتى تبلغ الأرضَ فتوري النار إذا أصابت الحجارة .

وقول " النمر بن تولبِ " في صفة سيف :

تظلُّ تحفر عنه إن ضربتَ به بَعْدَ الذّراعَيْن والسَّاقيْن والهادي

يقــول : رســب فــي الأرض بعد أن قطع ما ذكر ، واحتاج أن يحفر عنه ليستخرجه من الأرض ... والعرب تقول : " له الطَّم والرِّم " إذا أرادوا تكثير مالــه والطَّــمُ : الــبحر ، والــرِّمُ : الثرى . وهذا لا يملكه إلا الله تعالى .. ويقولــون : " له الضِّــحُ والرِّيح " يريدون ما طلعت عليه الشمس ، وجرت عليه الريح ويقولون : " فلان يُثير الكلاب عن مرابضها " يريدون أنه لِشرهه ولؤمــه ــ يثــيرها عن مواضعها ــ يطلب تحتها شيئـًا فاضلاً من طعمها ليأكله . وهذا ما لا يفعله بشر . وقال " الشاعر " :

تَرَكُوا جَارَهم يأكُــلُــه ضَبُعُ الوادي وَيَرمِيه الشجرُ

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث'' حسن صحيح''

والشجر لا يرمي أحدًا . وهذا كله على **المبالغة** في الوصف ، وينوون في جميعه يكاد يفعل ، **وكلهم يعلم المراد منه** } [١] .

فالعـرب كانت تعلم المراد من " المبالغة " وتفرّق بين ما هو حقيقة ، وما هو مجاز في شتى أساليب البلاغة .

وقـد قسَّم د . إحسان عباس الصدقَ خمسةَ أقسام وهو بصدد الحديث عن ابن طباطبا في قوله : { لهذا كانت لفظة الصدق متفاوتة الدلالة عند ابن طباطبا :

(١) فهـناك الصـدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها والتصـريح بما يكتم منها و الاعتراف بالحق في جميعها ، وهذا يشبه ما نسميه :

" الصدق الفني " أو " إخلاص " الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية .

(٢) وهـناك صدق التجربة الإنسانية عامة ، وهذا يتمثل في قبول الفهم للحكمة " لصدق القول فيها وما أتت به التجارب منها " .

(٣) وهناك الصدق التاريخي ، وذلك يتمثل عند " اقتصاص خبر أو حكاية كلام " وهنا يُجيز ابن طباطبا للشاعر إذا اضطر أن يزيد أو يـنقص علـى شـرط أن تكون " الزيادة والنقصان يَسيرَيْن غير مخدجين لما يُستعان بهما ، وتكون الألفاظ المزيدة غير خارجَة من جنس ما يقتضيه ، بل تكون مؤيدة له وزائدة في رونقه وحسنه " .

(٤) ونوع رابع من الصدق قد ندعوه " الصدق الأخلاقي " وهو ما لا مدخـل فـيه للكذب بنسبة الكرم إلى البخيل أو نسبة الجُبن إلى الشجاع وإنما هو نقل للحقيقة الأخلاقية على حالها ، وهذا يتبين في المـدح والهجـاء كما يتبين في غيرهما من الفنون ، وهو موقف يذكرنا بثناء عمر ــ رضي الله عنه ــ على زهير ، وأنه كان يمدح

---

(١) تـأويل مُشـكِل القرآن ــ ابن قتيبة ــ تحقيق السيد أحمد صقر ــ دار التراث ــ القـاهرة ــ ط الثانية / ١٧٢-١٧٨

الرجل بما فيه ، ولكن من المدهش أن نجد مزاجة ابن طباطبا أو مثاليته تَرَى في كل الشعر قبل عصر المحدثين ما رآه عمر في زهير : " ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء في صدر الإسلام من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحًا وهجاءً وافتخارًا ووصفًا وترغيبًا وترهيبًا إلا ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه وكان مجرى ما يوردونه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصدق ... أما المحدثون فلم يعودوا يستطيعون هذا النوع من الصدق ، ولذلك أصبح تقدير شعرهم إنما ينصرف إلى معانيهم المبتكرة وألفاظهم المنتظمة ، ونوادرهم المضحكة .

والأناقة العامة التي تمازج أشعارهم " دون حقائق ما يشتمل عليه المديح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها " وهذا التصور يُفسِّر لنا لِمَ كانت " السُّنَّة " العربية في الشعر تملك لب ابن طباطبا ، ذلك لأنه لم يكن يرى المثل الأعلى الفني في تلك السنة وحسب ؛ بل لأنها كانت في تصوره مثالاً أخلاقيًا كذلك .

(٥) أما النوع الخامس من الصدق ، فهو الصدق التصويري أو ما يسميه ابن طباطبا " صدق التشبيه " وهو ينصُّ عليه في غير موطن من كتابه على الشاعر أن " يتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته " وأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ؛ بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهًا به صورة ومعنى ، وللتشابه أنحاء : منها الصورة والهيئة والمعنى والحركة واللون والصوت ، فكلما زاد عدد هذه الأنحاء في التشبيه " قوي التشبيه وتأكد الصدق فيه " } (١) .

وجملة القول أن الصدق الفني ــ عند ابن طباطبا ــ يكشف المعاني المُختلجة ويُصرِّح بما غاب منها في ثوبٍ فنيٍّ لافت ، حيث يبرز فيه إخلاص الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية وهو المعول الأساسيّ

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ــ د . إحسان عباس ــ دار الشروق للنشر والتوزيع ــ عمّان ، الأردن ــ ط الثانية ١٩٩٣م / ١٣٠ - ١٣٢

والمغزى المراد من فنون الأدب ، بَيْدَ أن " ابن طباطبا " يرى أنه كلما التزم الشاعر بالصدق الأخلاقي أيضـًا ، كان ذلك أنجعَ وأبرعَ ، فهو لا يطالبُ الشاعر بالتزامه بتحرّي الحقائق ، كما لا يطالبه ـ في الوقت ذاته ـ بتزييف الحقائق وطمس الوقائع .

بينما ينأى " عبد القاهر " بالشعر جملةً عن الصدق الأخلاقي والكذب الأخلاقي ، وهو بصدد تحليله هل خير الشعر أصدقه أم أكذبه ؟! إذ يقول : { من قال : " خير الشعر أكذبه " فهذا مراده ، **لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصـًا ، وانحطاطـًا وارتفاعًا** ، بأن ينحل الوضيعَ صفةً من الرفعة هو منها عارٍ ، أو يصفَ الشريف بنقصٍ وعارٍ ، فكم جواد بخّله الشعر وبخيل سخّاه ؛ وشجاعٍ وسمه بالجُبن وجبان ساوى به الليث ، ودَنِي أوطأه قمة العيُوق ، وغبيٌ قضى له بالفهم ، وطائش ادَّعى له طبيعة الحكم ثم لم يُعتَبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقدُ دنانيره ، وتُنشر ديابيجه ، ويُفتق مسكه فيضوعُ أريجـُهُ .

وأما من قال في معارضة هذا القول : " خير الشعر أصدقه " كما قال :

وإنَّ أحسنَ بَيْتٍ أنت قائِلـُهُ   بَيْت يُقالُ إذا أنْشَدْتَه صَدَقَا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دلَّ على حكمة يقبلها العقل ، وأدبٍ يجب به الفضل ، وموعظة تروِّض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى وتبين موضع القـُبح والحُسن في الأفعال ، وتفصلُ بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد يُنحى بها نحو الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : " كان زهيرُ لا يمدح الرجل إلا بما فيه " والأول أولى ـ لأنهما يتعارضان في اختيار نوعي الشعر (١) .

ثم يزيد الأمر بيانـًا فيقول : { فمن قال : " خيره أصدقه " كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجري من

---

(١) النوع الأول : الصدق الفني ، دون النظر إلى غاية من الغايات ، والنوع الثاني : الصدق الخلقي والحث على الفضائل ، وقد انتصر للنوع الأول .

انظر أسرار البلاغة ـ تحقيق محمود محمد شاكر / ٢٧١-٢٧٢

obeikandi.com

العقل على أصل صحيح ، أحبَّ إليه وآثرَ عنده ، إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر = ومن قال : " أكذبه " ذهب إلى أن الصنعة إنما تَمُدُّ باعها ، وتنشر شُعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويُدَّعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يُقصد التلطُّف والتأويل ، ويُذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف والبثِّ والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعرُ سبيلاً إلى أن يُبدع ويزيد ويُبدي في اختراع الصور ويُعيد ، ويصادف مضطربًا كيف شاء واسعًا ، ومددًا من المعاني متتابعًا ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهي } (١) .

وبيَّن'' أن " عبد القاهر " ينتصر للصدق الفني ، ينتصر لعدم تقييد الشعراء بالصدق الخلقي والحث على الفضائل .

ومن هنا فلا شأن للمبالغة بالكذب الأخلاقي ، لأنها فن'' كسائر فنون البلاغة تعتمد التصوير ، وتجنح إلى الخيال ، فإذا لم تُزيِّف الحقائق ولم تصوِّر غير الواقع النفسي الداخلي ، ولم توهم الباطل حقًا ، ولم تقلب الأسطورة حقيقةً ، كانت مقبوله بل تكون دِعامةً قوية من دعائم التصوير الفني الـَّلافت .

ساعتها تؤدي المبالغة معنى لا يقوم غيرها فيه مقامها ، وكأننا أمام مشهد صادق ، ترى فيه الصورةَ ممزوجةً بالحقيقة ، والواقع ملفوفًا بالفن .

ساعتها ترى براعة الفنان في استخدام الأدوات المتاحة له ، يُصوِّر بها تجربته بأقصى درجة من الإحاطة والشمول ، بحيث تخدم الصورة التي توصَّل إليها وتجربته الصادقة التي عاشها ، وفكرته الفنية التي يؤديها وله تمام الحرية في أن ينتقي من الألفاظ ما يختار ، ويُغيِّر في خواص الأشياء والتصورات ما شاء له التصور والتخيُّل ، طالما أنه قادر'' على شدنا إلى

---

(١) أسرار البلاغة / ٢٧٢

عالمه ومحيطه الذي يتحرك فيه دون شططٍ أو إسرافٍ أو غلو (١).

ويُعَـدُّ من هذه البراعة : فكرةُ قلبُ الذمّ مدحـًا ، حيث يدخلُ جانب الذوق ، وقـوة صـنعة الشـعر الساحرة ، والمبالغة في الترويج لفكرة ما ، مَدْخلاً ركيـنـًا في إبداء الصورة ، وتزيين الفكرة ، الأمر الذي يدعو ذوق المتلقي إلى قبول أو رفض تلك الصورة من حيث التحسين أو التقبيح ، والافتخار أو التنقـيص ، فالمسـألة مرهونة بحسّ المتلقي ، وصدق المبدع وإخلاصه في إبداع الصورة ، مثلما كان من أمر القبيلة التي كانت تُعيَّر بأنف الناقة ، حتى قال الحطيئة :

قَومٌ هُمُ الأنفُ والأذناب غيرُهُمُ ... وَمَنْ يُسوّي بأَنْفِ النَّاقة الذَّنَبَا

قال عبد القاهر : { فنفى العار ، وصحّح الافتخار ، وجعل ما كان نقصـًا وشَـيْنـًا ، فضـلاً وَزَيْنـًا ، وما كان لقبـًا ونَبَزًا يسوء السمع ، شرفـًا وعزًا يرفع الطَّرف ، وما ذاك إلا بحسن الانتزاع ، ولطف القريحة الصَّنّاع ، والذِّهـن الناقد في دقائق الإحسان والإبداع ، كما كساهم الجمال من حيث كـانوا عَروا منه ، وأثبتهم في نصاب الفضل من حيث نُفُوا عـنه ، فلرُبَّ أنفٍ سليم قد وضع الشعر عليه حَدَّه فجدعه ، واسمٍ رفيعٍ قلب معناه حتى حط به صاحبه ووضعه } (٢).

مثال آخر : صَلْبُ مقتول : { وقد عُلم أن ليس في الدنيا مُثْلـَةٌ أخزى وأشـنع ، ونكـال أبلغ وأفظع ، ومنظر أحقُّ بأن يملأ النفوس إنكارًا ويُـزعج القلـوب استفظاعـًا له واستنكارًا ، ويُغري الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ، ودَرك الشقاء ، من أن **يصلب المقتول ويُشبَّح في الجذع** .

ثم قد ترى مرثية أبي الحسن الأنباري لابن بقية حين صُلب ، وما صنَع فيها مـن السِّحر ، حتى قلب جملة ما يُستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها ، وتأوّل فيها تأويلات أراك فيها وبها ما تقضي منه العَجَب :

---

(١) انظـر : الـبديع في شعر شوقي ــ د . منير سلطان ــ منشأة المعارف بالإسكندرية ط الأولى ١٩٨٦م / ٢٢١

(٢) أسرار البلاغة / ٣٤٤

عُلوٌّ في الحياة وفي الممات بحقٍّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأن الناس حولك حين قاموا وفودُ نداك أيام الصــّلاتِ
كأنك قائم'' فيهم خطيبـــًا وكُلــُّهمُ قيام'' للصـــــلاةِ
مددت يَدَيْك نحوهُمُ احتفـــاءً كمدهما إليهم بالهبــــــاتِ
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يَضُمَّ عُلاك من بعد المماتِ
أصاروا الجوَّ قبرك واستنابوا عن الأكفان ثوب الساقيـاتِ
لِعُظْمِك في النفوس تبيتُ تُرعى بُحرَّاسٍ وحُفَّاظٍ ثقــاتِ
وتُشعَلُ عندك النيرانُ ليــلاً كذلك كنت أيام الحيـــاةِ
ركبت مَطيــَّةً ، من قبلُ زيد'' علاها في السنين الماضياتِ
وتلك فضيلة'' فيها تــأسٍّ تُباعدُ عنك تعيير العـداةِ (١)

فقـد قلـب الشـاعر معاني التنقيص والنكال إلى معاني الشرف والإجلال ، فجـاءت عـبقرية " المبالغة " في رسم هذه الصورة الساخرة ، التي تتضح مـرارة الظلم والظالمين ، وترسم المظلوم " المصلوب " بطلاً ، فجعل ما يُنفر منه ، يُجذبُ إليه ، وما يخجلُ الإنسانُ أن يُنسب إليه ، يفتخر به .

ولكـأن الإنســان من براعة الصورة وجودة المعنى وحسن الأداء ليتمنى أن يكـون ذاك المصــلوب ، تجاوبـًـا معه ، واحترامـًا لوقفته واستشعـارًا لمظلمته .

ومن هنا فإن مقياس المبالغة ليس ذاتيـًا من قِبـَل الشاعر ، ولا انطباعيـًا من قِبـَل المتلقي ، ولكنه درجة من التعاطف والتلاقي والتجاذب بينهما مما يجعل الصورة أكثر امتاعـًا وقبولاً وإثــارةً للخيال (٢) .

---

(١) أسرار البلاغة ٣٤٦ – ٣٤٧

(٢) انظر : البديع في شعر شوقي د . منير سلطان / ٢٢٢

والخلاصـــة أن الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه " المبالغة " هو الصـــدق ليس بالمعنى الأخلاقي الذي هو نقيض الكذب ، وإنما الصدق بمضمونه الفني والشـــعوري ، حيث نصل إلى نقطةٍ في الصورة لا يغني عن المبالغة فيها سواها ، لا سيما في المواقف التي تستدعي إثارة الفكر والوجدان ؛ ولذا فإن قيمة المبالغة ليست في صدقها أوكذبها وإنما بقبول النفس لها واقتناع المتلقي بها ، وتعبيرها عن الموقف أصدق تعبير .

(٤) المُبَالغة بين المُسْتحيل والمُمْتنع والمُمْكن

تدور المبالغة في تراثنا حول هذه الكلمات " المستحيل " و " الممتنع " و " الممكن " ، فعرَّف الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) " المبالغة " بقوله : { أن يُدَّعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًا مستحيلاً أو مستبعدًا ؛ لـــئلا يُظنَّ أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف . وتنحصر في " التبليغ " ، و" الإغراق " و " الغلو " ؛ لأن المدعي للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكنـــًا في نفسه ، أو لا . الثاني الغلو ، والأول إما أن يكون ممكنـــًا في العادة أيضـــًا ، أو لا . الأول : التبليـــغ ، الثـــاني : الإغراق } (١) وقد بيَّنتُ هذا في الحديث عن تقسيم محمد بن علي الجرجاني للمبالغة (٢) .

وعرَّف " حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) " المستحيل بأنه { هو الذي لا يمكـــن وقوعه ولا تصوره ، مثل أن يكـــون شيء طالعـــًا نازلاً في حال } (٣) .

وعرَّف الممتنع بأنه { هو الذي يُتَصوَّر وإن لم يقع كتركيب عضو من حيوان على جسدٍ من حيوانٍ آخر } (٤) .

---

(١) الإيضاح / ٤١٢

(٢) انظر ص ٣٩ من التمهيد .

(٣) منهاج البلغاء / ١٣٣

(٤) نفسه / ١٣٣

واستبعد المستحيل من المبالغة ، بل جعل الوصف به من الفُحش ، ولم يسوِّغ الممتنع الإ على صورةٍ من المجاز في قوله : { والوصف بالمستحيل أفحش ما يمكن أن يقع فيه جاهل أو غالط في هذه الصناعة ، والممتنع قد يقع في الكلام إلا أن ذلك لا يُستساغ إلا على جهةٍ من المجاز ...... فبهذا الترتيب يتبين ما يصح من المبالغة ، وما لا يصح ، ولا يحسن فإن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدَّى إلى الإحالة قبيح وقد خالف في هذا جماعة ممن لا تحقيق عنده في هذه الصناعة ولا بصيرة له بها ، فاستحسنوا من المبالغة ما خرج عن حَدِّ الحقيقة إلى حَيِّز الاستحالة } (١) .

ويتضح من هذا أن المستحيل عنده ُفحش ، والإحالة قبيحة ، والممتنع مشروط بالمجاز ، ولا يسلم عنده للدخول في المبالغة إلا " الممكن " وحده والقائل بغير هذا ُأناس'' لا تحقيق لهم ولا بصيرة .

أما " ابن قتيبة " (ت ٢٧٦هـ) فيسوِّغ قبول المبالغة عند الانتقال من الإمكان إلى الإحالة أو الامتناع بالاحتكام إلى " كاد " ظاهرة أو ُمقدَّرة : { وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي " بكاد" ، فما لم يأت "بكاد" ففيه إضمارها كقوله : ﴿ وبلغت القلوبُ الحناجر ﴾ أي كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق } (٢)

ويقول في التعليق على بيت " الشاعر " :

تَرَكُوا جَارَهم يأكُلُه ضَبُعُ الوَادي وَيَرْمِيه الشجرُ

{ والشجر لا يرمي أحدًا وهذا كله على المبالغة في الوصف ، **وينوون في جميعه يكاد يفعل** ، وكلهم يعلم المراد به } (٣) .

ويسير " قدامة " (ت ٣٣٧هـ) على منوال " ابن قتيبة " فيحتكم ــ أيضًا ــ إلى " كاد " ُمسوِّغًا قبول المبالغة ، قال في التعليق على

---

(١) منهاج البلغاء / ١٣٣ – ١٣٤

(٢) تأويل ُمشكِل القرآن / ١٧١

(٣) نفسه / ١٧٨

قول أبي نواس :

يا أمينَ اللهِ عِش أبدًا   دُمْ على الأيامِ والزَّمنِ

{ فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاءل لهذا الممدوح بقوله : عِشْ أبدًا ، أو دعا له ، وكلا الأمرين ، مما لا يجوز ، مستقبح ... وليس في طباع الإنسان أن يعيش أبدًا ، وأيضًا فإنا كنا قد قدَّمنا أن مخارج الغلو إنما هي على " يكاد " وليس في قول أبي نواس : عش أبدًا ، موضع يحسن فيه لأنه لا يحسن على مذهب الدعاء أن يقال : يا أمين الله تكاد تعيش أبدًا } (١) .

وكأن قول أبي نواس قبيح على كل وجه سواء قدِّرت " كاد " أو لم تقدَّر وقد ردَّ " ابن الأنباري " تقدير " كادت " فإن " كاد " لا تضمر (٢) .

وفي رأيي أنه ليس من الصواب قبول " المبالغة " أو رفضها لقربها أو بعدها من المستحيل أو الممتنع بإطلاق ، وإنما الأجدى أن تقبل المبالغة على أساس الصدق الفني : صدق المبدع في تجربته ، وإخلاصه فيها ، وبراعته في استخدام الأدوات ، وأخيرًا وهو الأهم اقتناع المتلقي بها ، وتواصله تواصلاً حميمًا مع النص .

وكما قال " أرسطو " : " المستحيل المحتمل خير'' من الممكن غير المحتمل " أو بمعنى آخر : { المستحيل المُقنع أقرب إلى غاية الشعر من الممكن غير المقنع } ولما كان الأمر كذلك : فإن المستحيل الذي يعجز المؤلف عن تبريره " فنيًا " ليغدو مقنعًا هو ما يُسمَّى بالمستحيل فنيًا ــ وهو ما ينفيه " أرسطو " من العمل الأدبي على إطلاقه } (٣) .

فإذا كان المستحيل ــ وهو خارج [illegible] عن دائرة المبالغة ــ هو الذي لا يمكن وقوعه ولا تصوره ، مثل أن يكون شيء طالعًا نازلاً في

---

(١) نقد الشعر ــ لأبي الفرج قدامة بن جعفر ــ تحقيق كمال مصطفى ــ ط الثالثة ١٩٧٨م / ٢١٣ – ٢١٤

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن ــ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار التراث ــ ط الثانية ٣ / ٥٢

(٣) مفهوم المبالغة / ٢٩٦ – ٢٩٧

obeikandl.com

حال (١) فماذا تقول في قول امرئ القيس وقد لقى الاستحسان :

مِكرٍّ مِفرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ مَعًـا   كجلمُود صَخْرٍ حَطَّه السَّيلُ من علِ

فالكَرُّ والفرُّ نقيضان ، والإقبال والإدبار نقيضان وجمع كلٍّ مستحيل ، ومع هذا أجاد وأبدع لصدق تجربته ، وحسن تبريره ، وفنيته في الشعر .

والمعانـــي القريبة ــ كذلك ــ لا تخلو من مبالغة حتى أجاد المبدع ، ووازن بين المعاني فاختار أجودها وانتقى من الصيغ والألفاظ أنسبها ، وفي الوساطة ينقل لنا " القاضي الجرجاني " كيف تنتقل المعاني إلى أقصاها مثل قول بعض العرب في هيبة الرؤية :

تُغضي العيونُ إذا تبدَّى هيبةً   ويُنكّسُ النظّارُ لحظَ النّاظرِ

أخذ هذا المعنى وبلغ فيه أقصاه الحزين الدُّؤلي فقال :

يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى من مَهابتهِ   فلا يُكلَّـمُ إلا حِينَ يبْتَسِمُ (٢)

كذلك قول عبد الله بن طاهر :

إنَّ الفتوحَ على قَدْرِ المُلُـوك   وهمَّات الولاةِ وأقْدار المَقاديرِ

أخذ هذا المعنى وانتقل به إلى الغاية في الإجادة أبو الطيب المتنبي فقال :

على قدر أهل العزمِ تأتي العزائمُ   وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ (٣)

ومـــن هنا فلا حكر على الشاعر في أي دائرة شاء أن يبدع فليبدع ما توافر قيد " ابن قتيبة " { وكلهم يعلم المراد به } (٤) .

فلـيُبـدع في المعاني القريبة والبعيدة ، في الممكن ، والممتنع ، والمستحيل بشرط توافر هذه النقاط :

---

(١) منهاج البلغاء / ١٣٣

(٢) انظر : الوساطة / ٢٩٦

(٣) نفسه / ٢٢٨

(٤) تأويل مشكل القرآن / ١٧٨

١- الصدق الفني وإخلاص الشاعر في تجربته .

٢- براعة استخدام الفنان للأدوات المتاحة .

٣- عدم صدمه لثوابت الناس ومشاعرهم .

٤- قبُول النفس لها .

٥- اقتناع المتلقي بها .

٦- تعبــيرها عن الموقف أصدق تعبير بحيث لا يغني عنها سواها .

وإليك رسمــًا تخطيطيــًا مقترحــًا لدوائر المبالغة

وهو ُمعدَّل لتقسيم محمد بن على الجرجاني للمبالغة

obeikandl.com

obeikandl.com

(٥) تفرُّد مبالغات القرآن

وردت جميع المبالغات في القرآن الكريم قوية جزلة ، تحمل جميعها تفرُّدًا وتميُّزًا مُفارقًا لكلام البشر ؛ فهي لا تنبو عن ذوق ، ولا ينكرها عقل وكلها من المبالغات الحسنة المقبولة التي سَلِمَتْ من الاضطراب والزيغ ومن الإسراف والزيف .

ودرجاتها ــ عند المفسرين ــ من التبليغ ، والاقتصار ، والإغراق ، والإفراط ... الخ ، مرده مصطلح'' واحد'' هو " المبالغة " ، وهذا ما اتفق عليه المفسرون في تسمية الجميع " مبالغة " دون الانخراط في تفريعات البلاغيين التي نحن في غناءٍ عنها حتى لا تضيع جهود المتلقين دون طائل من تلك التقسيمات .

ومن الذين نصُّوا على فضيلة المبالغة ووجودها في القرآن الكريم وكلام العرب "بدر الدين بن مالك"(ت ٦٨٦هـ) يقول : { ومع هذا فللمبالغة فضيلة لا تُنكر ، ولو كانت معيبة لما **أتت في القرآن الكريم** على وجتوه شتى ، ولبطلت الاستعارة والتشبيه ، وكثير'' من محاسن الكلام } (١) .

وقال " ابن النقيب " في مقدمته : { قال علماء علم البيان : **المبالغة : الزيادة** على التمام ، وسُمِّيت مبالغة لبلوغها إلى **زيادة** على المعنى لو أزيلت تلك الزيادة وأسقطت كان المعنى تامًا دونها ، لكن الغرض بها تأكيد ذلك المعنى في النفس وتقريره **وفي القرآن العظيم والكلام الفصيح والأشعار منه كثير** } (٢) .

وقسَّم بعض البلاغيين " مبالغات القرآن " قسمين :

- مقترنة بـ " كاد "
- غير مقترنة .

---

(١) المصباح / ٢٢٣

(٢) مقدمة تفسير بن النقيب ــ لأبي عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدس ت ٦٩٨هـ ــ المطبوع خطأ بعنوان : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ــ لابن القيم الجوزية ــ تحقيق د . زكريا سعيد علي ــ مكتبة الخانجي بالقاهرة ت ط الأولى ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م / ٤٠٦

مثلما مرَّ علينا من كلام " ابن قتيبة " (ت ٢٧٦هـ) : { وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه **يأتي بكاد ، فما لم يأت بكاد** ففيه إضمارها كقوله :

﴿ وَبَلَغَتِ القلوبُ الحَنَاجِرَ ﴾ أي كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق } (١)

كذلك قول " ابن أبي الإصبع " (ت ٦٥٤هـ) { وجميع مبالغات الكتاب على ضربين ضرب غير ممكن لا يأتي إلا **مقترنـًا** كما تقدم من قوله تعالى :

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصارِ ﴾ (٢) والممكن قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ سواء'' منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ (٣) لما كانت ممكنة جاءت المبالغة فيها **غير مقترنة** ، لأنها في هذه الآية عرفية ، معنى الكلام فيها " أنَّ عِلْمَ ذلك بالنسبة إلينا هو متعذر علينا " وسهل'' بالنسبة إلى علم الله ــ سبحانه ــ **فالمبالغة فيها إذاً بالنسبة إلينا لا إلى الله ــ عز وجل** }(٤)

وبيَّنتُ من خلال " البحث " أن " مبالغات القرآن " أشمل من ذلك ، فهي في الصيغة وعن طريق أدوات كثيرة وليس " كاد " فقط ، وفي الأسلوب ومن خلال التصوير .

والخلاصة : أن " مبالغات القرآن " انقسمت قسمتين :

الأولى : أن جميع " مبالغات القرآن " حسنة مقبولة .

الأخرى : جميعها ــ كما سأبينُ ــ من جهة المتلقي .

مبالغات القرآن والتلقي :

في تعليق " ابن أبي الإصبع " السابق بيان'' أن " المبالغة " بالنسبة إلينا لا إلى الله ــ عز وجل ، فالأمر سهل على الله ــ سبحانه ، متعذر علينا ،

---

(١) تأويل مُشكِل القرآن / ١٧١

(٢) النور/ ٤٣

(٣) الرعد / ١٠

(٤) بديع القرآن ــ ابن أبي الإصبع ت ٦٥٤هـ ــ تحقيق حفني محمد شرف ــ نهضة مصر ــ لا تاريخ / ٥٧

وأكـدَّ هـذا القول " الزركشي "(ت ٧٩٤هـ) : في تعليقه على الآيـة نفسـها : { وهي بالنسبة إلى المُخاطَـب ، لا إلى المُخاطِب ؛ معناه أنَّ علم ذلك متعذر '' عندكم ، وإلا فهو بالنسبة إليه ــ سبحانه ــ **ليس بمبالغة** }[١]

فعلـم الله ــ عز وجل ــ محيط'' شامل ثابت ، وصفات الله متناهية الكمال لا زيادة فيها ولا نقصان ، وربما يأتي الكلام بالكثرة للتقريب والتمثيل تيسيرًا علـى أفهام البشر كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه منْ بَعْدِه سبعةُ أبْحُرٍ مَا نفِدَت كلماتُ اللهِ ﴾ [٢] .

{ قال المفسرون : والغرض من ذلك الإعلام بكثرة كلماته ، وهي في نفسها غير متناهية ، وإنما قُرّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة .

وقـال بعـض المحققين : إن ما تضمنت الآية أن كلمات الله تعالى لم تكـن لتـنفد ، ولم تقتضِ الآية أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور وكما قال الخضـر عليه السلام : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصـفور من ماء البحر حين غمس منقاره فيها } [٣] والأصل أن علم الله لا ينقص ولكنه مَثَـل'' تقريبي .

كذلـك " المـبالغة " فـي أسماء الله الحسنى ، إنما تأتـي من جهـة تكثير المـتعلق[٤] لا مـن جهة تكرير وقوع الوصف ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلـيه إنَّه هو **التوابُ الرحيمُ** ﴾ [٥] قال أبو حيان : { فجاء " التواب " على وزن فعَّـال ، و " الرحيم " على وزن فعيل ، وهما من الأمثلة التي صيغت **للمـبالغة** ، وهذا كله ترغيب من الله تعالى للعبد في التوبة ، والرجوع إلى الطاعـة ، وإطمـاع في عفوه تعالى ، وإحسانه لمن تاب إليه " التوَّاب " من أسمائه تعالى وهو الكثير القبول لتوبة العبد ، أو الكثير الإعانة عليها } [٦]

---

(١) الـبرهان فـي علـوم القرآن ــ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤هـ ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار التراث ــ ط الثانية ٣ / ٥٣

(٢) لقمان/ ٢٧

(٣) البرهان ٣ / ٥٤

(٤) أبنت هذه النقطة في الفصل الرابع مبحث " أسماء الله الحسنى " بشيء من التفصيل .

(٥) البقرة /٣٧

(٦) البحر المحيط ١ / ٣٢٠ ، وانظر المزيد في المبالغة في أسماء الله تعالى في مبحث الإعجاز الأخير .

وفي الإتقان : { قد أورد بعض الفضلاء سؤالاً على قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) وهو أن " قديرًا " من صيغ المبالغة ، فيستلزم الزيادة على معنى " قادر " ، والزيادة على معنى " قادر " محال ؛ إذ الإيجاد من واحدٍ لا يمكن فيه التفاضل باعتبار كل فرد . وأجيب بأن " المبالغة " لما تعذَّر حملها على كل فرد ، وجب صرفها إلى مجموع الأفراد التي دَّل السياق عليها ، فهي بالنسبة إلى كثرة المتعلق لا الوصف } (٢) .

ومن هنا فإن إجراء المبالغة إنما يتم من قِبَل المتلقي ، لا من قِبَل الله ــ عز وجل ــ وفي هذا إغلاق لمن نفى المبالغة في القرآن بحجة أنها لا تجوز على الله تعالى .

ألفاظ دالة على المبالغة في أقوال المُفسرين :

وأخيرًا : ثمة ألفاظ دالة على المبالغة وردت في أقوال المفسرين عبَّرت عن دلالات المبالغة ، فربما صرَّح بها مُفسِّر ، وربما أشار آخر بهذه الألفاظ كناية عنها وهذه الألفاظ هي :

فَرْط (٣) وإفراط (٤) وكثيرًا (٥) وغاية (٦)

---

(١) البقرة/ ٢٨٤

(٢) الإتقان في علوم القرآن ــ الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ مكتبة دار التراث ــ القاهرة ٣/ ٢٨٤ .

(٣) في قوله تعالى : " كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا " يونس /٢٧

قال أبو السعود : { لفَرْط سوادها وظلمتها } أبو السعود ٤ / ١٣٩

وصرَّح بها أبو حيان : { وهذه المبالغة في سواد الوجوه وقد جاء مُصرَّحًا في قوله " وتسود وجوه " } البحر المحيط ٥ / ١٥٠

(٤) في قوله تعالى : { واخفض لهما جناح الذل من الرحمة } الإسراء/٢٤

قال ابن جُزي : { ومِنْ في قوله " من الرحمة " للتعليل أي من أجل إفراط الرحمة لهما والشفقة عليهما } التسهيل ٢ / ١٧٠

(٥) في قوله تعالى : { إنما أنت من المُسحَّرين } الشعراء /١٥٣ ، ١٨٥

قال الزمخشري : { المُسحَّر : الذي سُحر كثيرًا حتى غُلب على عقله } الكشاف ٣ / ١٢٣

وصرَّح بالمبالغة ابن جزي في التسهيل { من المسحَّرين : مبالغة في المسحورين } التسهيل ٣ / ٨٩

(٦) في قوله تعالى : { أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا } الحجرات /١٢ ==

والشدة والقوة [١] والمُستقصِى [٢] ومتجاوز [٣] والتناهي [٤] ... الخ

== قال البيضاوي : { إسناد الفعل إلى " أحد " للتعميم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهية } تفسير البيضاوي ٢ / ٤١٧

(١) في قوله تعالى : { وغلّقت الأبواب } يوسف /٢٣

" وتضعيف { غلقت } لإفادة شدة الفعل وقوته " التحرير والتنوير مجلد ٦ جزء ١٢ /٢٥٠

(٢) في قوله تعالى : { يسألونك كأنك حفيٌ عنها } الأعراف /١٨٧

قال القرطبي : { والحفيّ : المُستقصِي في السؤال } تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٦٢

(٣) في قوله تعالى : { واتبعوا أمر كل جبَّار عنيد } هود /٥٩

قال الصاوي على الجلالين : { قوله : " عنيد " : معاند مُتجاوز في الظلم } ٢ / ١٨٦ ، ١٨٧

(٤) في قوله تعالى : { إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين } الذاريات/ ٥٨

قال صاحب القول الأسني : { المتين : يُفيدُ في الله سبحانه : التناهي في القوة والقدرة } / ٤٤٢

obeikandl.com